بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية مصر العربية
جامعة الازهر
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
شعبة الادب والنقد
السنة الثانية

دور الثقافة والخيال فى شعر حافظ ابراهيم

باشراف الدكتور
احمد الشرباصى

١٣٩٧ هـ
١٩٧٧ م

اعداد الطالب
عبد الله بن محمد بن حمد العمار

الباب الأول /

حياة حافظ ابراهيم

أولا / مولده ونشأته /

لم يكن حافظ ابراهيم من أسرة مرموقة ليؤرخ لمولده ، لأن والده فقير يشتغل فى قناطر ديروط بالصعيد ، ولم يكن من أسرة متعلمة تعتنى بتسجيل تواريخ ميلاد أبنائها ولاتعرف قيمة هذا العمل ، ولايعلم والده أنه سيكون لابنه هذا الشأن الذى يعتنى به الأدب والتاريخ .

وقد كتب المرحوم أحمد أمين فى مقدمة الديوان معلومات من ملف حافظ المحفوظ الآن بادارة المعاشات(١) فيها أنه لايعرف مولده بالضبط وقد قرر الطبيب أنه ولد فى ٤ فبراير سنة ١٨٧٢ م عندما أراد التوظف فى دار الكتب ، كما أنه كتب بخط يده أنه ولد فى ذهبية (أى حراقة) بالنيل بالقرب من قناطر ديروط بالصعيد .

وكان يملك هذه الحراقة (محمود سليمان باشا) من كبار سادة الصعيد فى ذلك الحين وقد قدمها الى والد الشاعر (ابراهيم افندى فهيمى) مقابل توفير المياه لارواء أراضيه الواسعة .

ولم ينعم الطفل بالعيش فى كنف والده طويلا حيث توفى والده وهو فى السنة الرابعة من عمره ولم يخلف له ثروة تسد عوزه وتكفل له الحياة السعيدة وتعوضه عن عناية والده بالخدمة وتوفير العيش الرغيد ، ووالده (ابراهيم افندى فهيمى) مصرى صميم ،أما أمه فهى السيدة (هانم بنت أحمد البورصه لى) من أسرة تركية الأصل .

وقد انتقلت به أمه بعد وفاة والده الى القاهرة عند أخيها (محمد افندى نيازى) فتعهده خاله بالتربية والتنشئة الحسنة ، فأدخله المدرسة الخيرية، ولكن هذه المدرسة تسير على نظام الكتاتيب ومنها ترقى الى المدرسة القربية، ومنها الى المدرسة المبتديان فالمدرسة الخديوية ، وكلهالم تتجاوز الابتدائية . ولكن لم يطل به المقام فى هذه المدارس حيث سافر مع ولى أمره خاله المهندس محمد نيازى الى طنطا ، وعاش هناك بدون عمل ولا دراسة ، وتعرف على شباب البلد والتفوا حوله يستمتعون بحلاوة حديثه وحسن منطقه ، وتوثقت صداقته ببعضهم حتى صار محبوبا من الجميع ، وأخذ يسرح نظره فى جوانب الحياة ويحاول التلهى والتسلى بالتجوال فى أنحاء المدينة ويعود الى بيت خاله كلما أحس بالتعب ، فيضيق به خاله ، لأن حافظا قد بلغ سن الرشد ولم يستطع أن يوفر له عملا يعطله ، فأحس حافظ من خاله عدم الرغبة فى استمرار هذه الحال ، فنظم له بيتين يدلان على ما فى نفسه من ألم عميق . قال

ثقلت عليك مؤونتى ... انى أراها واهية
فافرح فانى ذاهب ... متوجه فى داهية

---

(١) مقدمة الديوان صفحة (٣) .

فتوجه كما يقول فى داهية . ليس له وجهة معينة يقصدها فالى أين يتوجه ؟ وماذا سيعمل ؟ ليس أمامه الا أحد طريقين ، اما أن يكون معلم صبيان فى كتاب كما فعل كثير ممن هم على شاكلته واما أن يكون محاميا ، وكلا العملين فيهما مجال للعمل والكسب اذا نجح فيهما ، فأيهما أخير ؟ لقد أعجبته حذلقة لسانه فاختار المحاماة يحدوه الأمل أن يكون ذا مكانة مرموقة ، ولكن وقف أمامه تكاليف فتح المكتب ففضل أن يشتغل عند أحد المحامين المشهورين ، فقصد الشيخ محمد الشيمى المحامى بطنطا ، واشتغل فى مكتبه ، فكان يترافع الى المحاكم القريبة من طنطا ، ثم اختلف مع الشيخ صاحب المكتب فتركه وترك له هذين البيتين /

جراب حظى قد أفرغته طمعا   بباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو مملوء فقلت له   مم ؟ فقال من الحسرات وا حربا

ثم اشتغل عند الأستاذ محمد أبى شادى بطنطا ، فحصل بينهما تقارب ، ربط بينهما حب الأدب . ولكن طبع حافظ الملول جعله يترك مكتب أبى شادى ليعمل فى مكتب عبد الكريم فهيم المحامى ، ومنه الى مكتب الاستاذ ابراهيم الهلباوى ، وكان سليط اللسان ، فحدث بينهما معركة كلامية ، أوغرت صدر حافظ .... وبعد ذلك أدرك حافظ انه لايستطيع أن يعمل فى المحاماة لاختلاف طبعه مع هذا العمل الذى يريد تفرغا لدراسة القضايا ، كما أنه أدرك أنه لم تصقله التجارب ليقارع كبار المحامين الذين جربوا الأمور وفهموا قواعد الشرع ودروب الحجج الشرعية فهو لايزال شابا كل سلاحه فصاحة اللسان عند المحاجة وتصريف الكلام ، وعندما فشل فى المحاماة فكر فى اتجاه جديد ، وكان يقرأ عن البارودى ويسمع عنه ، فاعجب به ايما اعجاب ، وأحس أنه يستطيع قول الشعر مثله ، وعليه أن يتجه اتجاهه فيدخل المدرسة الحربية ليكون ضابطا مثله فيحوز قصب السبق فى القلم والسيف مثله ، فذهب الى القاهرة ، فالتحق بالمدرسة الحربية وكله أمل أن يتخرج ويحتل منصبا مرموقا ، وواصل الدراسة حتى تخرج منها فى سنة ١٨٩١م - ١٣٠٩ هـ ولكنه لم يخرج منها بثقافة ذات بال لأن المستعمر قد مسخ مناهجها وجعلها جوفاء ، واهتم بأن يخرج ضباطا يحملون أفكاره وطوع بنانه يمشون حين يأمر ويقفون عندما يطلب ، لايخرجون من طاعته قيد انملة . ونال رتبة (ملازم ثان) فانتفخت أوداجه وأخذ يرفل فى البزة الحربية بجسمه النضير وهيكله الوسيم ، فتعين فى وزارة الحربية وجلس بها ثلاث سنوات ، وبعدها نقل الى البوليس ، ولم يمكث هناك الا سنة حيث رده البوليس الى الحربية نظرا لاهماله ، أحيل على أثر رجوعه على الاستيداع ، ثم استدعى ليعمل مع الجيش الذى توجه الى السودان ، وما أن وطئت قدماه أرض السودان حتى برم بالعيش هناك ، وتغير الجو المرح الذى اعتاده حافظ . وقلبوه فى المراكز لعله يتناسب مع أحدها ، وفى كل مركز يظهر فوضى وفشلا ، فحصل بينه وبين رئيسه سوء تفاهم كتب فيه تقارير سيئة فأخذ حافظ يكيل له الهجاء

الذى يتغنى به هو وزملاؤه ، وفى هذه الفترة بدأ حافظ يستفيد من تجاربه فى المحاماة حيث بدأ زملاؤه يوكلونه للدفاع عنهم فى القضايا التى يتهمون بها .

وكان رحمه الله يرسل الرسائل من السودان الى مصر يستشفع بمن لهم جاه وسلطان عند الدولة لعلهم ينقلونه فلم يجد ذلك شيئا . وقد كان الضباط المصريون فى غاية سوء الحال ونكد العيش نظرا لما يفرضه عليهم الضباط البريطانيون ، ولكن حافظا لم ينبس ببنت شفة الا بعد أن ترك العمل بسنوات حين ألف (ليالى سطيح) سنة ١٩٠٧ ، ١٩٠٨ م حيث ذكر أشياء فضيعة تبين استبداد المستعمر بالرفاهية والنعيم على حساب الشعب المصرى وخيرات بلاده .

وقد حدث فى الجيش البريطانى فى السودان اهتزاز ، أخذ القواد على أثره يجمعون السلاح من أيدى الجنود والضباط ، فخشيت جماعة منهم مغبة هذا العمل فى وسط الصحراء فتمردوا على الأمر وثاروا ضده ، فجرى التحقيق فى هذا التمرد بكل وسيلة جرى القبض على رؤساء الحركة ، بلغوا ثمانية عشر ضابطا أحدهم حافظ ابراهيم ، فأحيل الى الاستيداع ، وهو أهون جزاء ، فرجع الى مصر خلو اليدين ، فحيل بينه وبين ما يشتهى من الأمر والنهى والجاه والسلطان ، وكانت احالته على الاستيداع فى ٣ مايو ١٩٠٠ م وطلب بعد ذلك الاحالة على المعاش فى أول نوفمبر سنة ١٩٠٣ م ، حيث أن الاربعة جنيهات التى يتقاضاها أثناء الاستيداع لاتكفيه . فانتهت بذلك حياته العسكرية .

لقد بقى حافظ بدون عمل لمدة تقارب احدى عشرة سنة ، ذاق أثناءها العوز والاملاق نظرا لكونه أخرقا لايستطيع أن يعمل ، وقد حاول الخديوى أن يبحث له عن عمل لدى احدى الصحف فلم تنجح هذه الوساطة، وأخذ يتردد فى هذه الفترة على حلقة الشيخ محمد عبده ينهل منها العلم ويسعد بصحبة الشيخ الذى لايدخر وسعا فى مساعدة الشاعر .

وكان الشاعر فى هذه الفترة ينظم الشعر يتبرم من الفشل الذى أصيب به فى حياته رغم سعيه وراء الرزق بكل جد واجتهاد . يقول مخاطبا نفسه /

ماذا أصبت من الأسفار والنصب ... وطيك العمر بين الوخد والخبب
نراك تطلب لا هونا ولا كثبا ... ولا نرى لك من مال ولا نشب
كم همت فى البيد والآرام قائلة ... والشمس ترمى أديم الأرض باللهب
وكم لبست الدجى والترب ناعسة ... والليل أهدأ من جاش لدى النوب
لكننى غير مجدود وما فتئت ... يد المقادير تقصينى عن الأرب
وقد غدوت وآمالى مطرحة ... وفى أمورى ما للضب فى الذنب

وقد زادت هذه الفترة من رصيده من البؤس والشقاء والتعقد النفسى ، مما أثر عليه فى حياته وجعلته يخضع للحكم المفروض على البلاد ويداهنه عندما تمكن من العمل فى دار الكتب كما سيأتى . وألحق اللوم بأمته التى لاتقدر مكانته فهو يقول /

عقنى الدهر ولولا أننى   أوثر الحسنى عققت الأدبا
أنا لولا أن لى من أمتى   خاذلا ما بت أشكو النوبا

حتى أصبح يشعر أن الناس تخلوا عنه ولم يعد له نصير فى هذه الحياة ، فها هو ذا يقول أثناء رثائه للفيلسوف الروسى (تولستوى) (١)

فقد كنت عونا للضعيف وانني   ضعيف وما لى فى الحياة نصير

ويتوجه بالمدح الذى يندى له الجبين للمستعمرين وأعوانهم علهم ينفحونه بعمل يقيه من ورطته ويسد عوزه ولكن لا فائدة . وتتكاثر همومه وتشتد ظروفه القاسية.

ويرى أن ينفس عن نفسه بأنيس يشاركه ويواسيه ، ويقرر فى سنة ١٩٠٦م فيتزوج ، ولكنه لم يجد الذى كان يأمله من الحياة الزوجية ، فيقرر الانفصال عنها بعد حوالى أربعة أشهر ولم يتزوج بعدها ، ولحسن حظه أنها لم تنجب منه .

وتتوالى عليه الأحزان ، وتتوفى أمه فى عام ١٩٠٨م وبعدها بفترة وجيزة يتوفى خاله الذى كان يعيش معه ، ولم يبق له من الأقرباء وذوى الرحم الا امرأة خاله ، فعاش معها تعتنى به وترعى شؤونه ، وكان رحمه الله شديد البر بها حتى توفيت قبل وفاته بثلاث سنوات.

وفى سنة ١٩١١م هداه تفكيره الى الذهاب الى المرحوم احمد حشمت وزير المعارف فعرض عليه حاله فرق له وعينه تحت التجريب ليعمل بدار الكتب بمرتب قدره ثلاثون جنيها وفى أول ابريل عام ١٩١٢م يجتاز الامتحان فيتعين رسميا ، وترقى فى الوظائف والمراتب حتى بلغ مرتبه ثمانين جنيها ، وأحيل الى المعاش فى ٤ فبراير سنة ١٩٣٢م .

ورغم الشقاء والعناء الذى لقيه حافظ حتى حصل على هذا العمل يعاوده الملل ، فلم يكن ذلك الموظف والرئيس المجد الذى يؤدى عمله على الوجه المطلوب حيث أنه يمضى الأيام خارج عمله ، واذا حضر لا يجلس الا وقتا يسيرا حتى يخرج ليلتقى برفاقه فى المقاهى والمنتديات.

ويذكر الدكتور أحمد أمين ان هذه الفترة التى تنعم فيها حافظ بالعمل والجاه لم تعد على الأدب بالخير ، حيث ألجمت الجنيهات فاه عن الشعر الوطنى الا نادرا وفى غير صراحة وذلك خوفا على منصبه ، وخوفا من السجن الذى لا يبغض شيئا أكثر منه ، وكلما تذكر ماضيه البائس راعه هذا الشبح فزاد من لجامه وكبحه لفلتات لسانه . ويعلل ذلك الدكتور عبد الحميد الجندى بأن ذلك وهن وضعف (٢) ، وكان بامكانه أن يتعدى الشعر الوطنى والسياسى الى شعر الطبيعة والاحساسات التى لا تمسه فى عمله ، ويتجه كما اتجه

---

(١) الديوان جـ ٢ ص ١٦٤
(٢) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ٤٣ ، ٤٤

شوقي الى أنواع الأدب الأخرى من الحديث عن التاريخ والأمجاد الماضية ، ويسرح نظره في أنحاء العالم الواسع الذي هو الملهم للبشرية كلها ، كيف لا وهو يعيش في أرض الكنانة على ضفاف النيل الجميل .

وفاته /

لقد أصيب حافظ في سنيه الأخيرة بمرض السكر ، وتوالت عليه العلل ولازم منزله ، وأصدقاؤه يزورونه ، وفي احدى الليالي دعا بعض أصدقائه للعشاء وبعد خروجهم ، وفي الساعة الخامسة من يوم الخميس الموافق ٢١ يوليو عام ١٩٣٢م لبى نداء ربه ، رحمه الله رحمة واسعة ، فلله الأمر من قبل ومن بعد .

....

البـــاب الثـانى

شـعر حافظ والثقافة والخيـــال فى شـــعره

الفصـل الأول (شعر حافظ)

انى وأنا أكتب فى هذا الموضوع الذى يمس شعر حافظ ، فلا بد أن أتكلم أولا عن شاعريتـه وشـعره ، ولكن لا أبيح لنفسى أن أتوسـع فى دراسة هذا الجانب دراسة مستفيضة ، ولكنـى رأيت أن أجعله فصـلا ألقى به بعض الأضواء على معالم شعره ٠

لم يكن حافظ من أسرة عريقة فى الأدب والشعر ، ومع ذلك فقد نشأ نشأة العصـــاميين اولئك الذين ينبتون فى مواطن اليتم والبؤس ، فتعوضهم رعاية الله ما فقدوه من عطـــف الأب ، وعون المال ، وعـز الحسـب ٠

ولم يكن ذلك الرجل المثقف الذى استطاع ان يصنع الشعر صنعا ، وينحته نحتا ، وينظمـه تطبيقا لما حفظه من قواعد العروض ، شأن الطبقة التى سبقت عصره من الشعراء ، ولكنه كما يقـول الدكتور شوقى ضيف(١) انه كان شاعرا بطبعه لا بثقافته ، واستطاع ان يثبت للمنافسة مع شـــوقى ومطـران وغيرهما ممن رفدوا طبيعتهم بجداول الفكر الغربى وينابيعه العقلية ٠

ولو حاولنا ان نبحث عن مكونات شاعريته بالاضافة الى ما سبق وهو الأهم ، وكذلك فـــى الأشياء التى حددت اتجاهه فى قول الشعر ورسمت الطريق الذى سار فيه طيلة حياتـــــه لوجدنا أن أول هذه الأســباب /

١ ـ الدم المصرى الذى ورثه عن أبيه ، وان كانت أمـه تركية كما سلف ، وأصبح حب مصر يجرى فى دمه وروحه ومزاجه ، تغنى بمصر ودافع عنها حتى استحق شاعر الوطنية ، وشاعر النيـــــل فمثل مصر وعبر عنها فى وطنيـاته ومزج ذلك بكل شعره ، وكل غرض قال فيه تبرز وطنيته جليـــة واضــــحة ٠

٢ ـ ثقافته العربية الخالصة ، وأكبر موجه له فى هذه الناحية اعجابه بالبارودى الذى كان له أكبر الأثر فى شخصية حافظ ، فربما كان دخوله المدرسة الحربية ناشئا عن رغبة ملحـــة فـى نفســه لأن تصبح سيرته مثل سيرة البارودى من جميع الوجوه ، وكذلك اشتراكه فى ثورة الجيش فى السودان ربما كان احتذاء لسنة البارودى وتقليـدا له ٠

فالبارودى كان مثله الأعلى ، وأخذ يطابق مطابقة تامة بين هذا المثل وشـــــعره واستطاع أن يظفر من ذلك بما كان يطمح اليه ، فقد حول الى شعره صيغة الجزالة الرصينـــة وان حاول تبسيطها ، الا أن قوالبه تمتاز دائما بما يمتاز به قوالب البارودى من الرصانـــــة والجزالة والبعث لأساليب العربية الأصيلـة ٠ الا أن حافظا لم يصل الى ما وصل اليـــــه

---

(١) الأدب العـربى المعاصـر فى مصـر ص ١٠٥

البارودى من الثقافة ، فهما تماما كأبى تمام والبحترى الا أن حافظا لم يكن منظما فى ثقافته وقراءته حيث تغلب عليه الفوضوية ، ويسيطر عليه الكسل والهزل والتهاون ، وعدم العناية بشعره فضلا عن شعر غيره الا ما حفظه فى ذاكرته ، فلم يعهد عنه أنه قام بتدوين شعره ولولا نعمة الصحف والمجلات لضاع شعره • ويمكن أن نقول ان حسن ذوقه فى تخير مايقرأ قد عوضه عن كثرة الثقافة•

كما أنه يختلف عن استاذه البارودى بقلة حصيلته من الثقافة الأجنبية لقلة اتصاله بأهلها وعدم عنايته بالاطلاع فى التراث المنقول عنهم ، وان كان يلم باللغة الفرنسية، فان أثرها زهيد جدا فى شاعريته • فحافظ رحمه الله ضيق الثقافة بالقياس الى البارودى، وأشد ضيقا بالقياس الى معاصريه من كبار شعراء عصره مثل شوقى ومطران وغيرهما •

٣ـ البيئة التى كان يعيش فيها حافظ أكبر معد له بالشاعرية وتوجيه خط سيره فى شاعريته فخالط المجتمع بشتى طبقاته ، خالط البؤساء ، والفقراء ، فاستمد منهم البؤس والشقاء والمادة لتوجيه المجتمع ونقده ، وخالط الصحفيين فاقتبس منهم الثقافة والاطلاع على الأحداث بكل تفاصيلها ، وخالط الزعماء والمصلحين وقادة الأمة الثائرين على المستعمر المطالبين بحق الوطن وحريته ، فاستمد منهم شعر السياسة والشعر الوطنى •

هذه أبرز الأشياء التى كونت حافظ ابراهيم الشاعر•

ولقد تعرض حافظ رحمه الله لهجوم عنيف من ناشئة الشعراء فى عصره وحاولوا النيل منه ما وسعهم ذلك والتجنى على شاعريته ، وقائد هذه الحملة هو المازنى اذ يقول (ولوكان للأدب حكومة تنتصف له من المسىء وتكافىء المحسن لكان أقل جزاء حافظ على ما ارتكب من الشعر أن يبتاع ما اشتراه الناس من كتبه ثم يحرقها بيده لأن شعره جناية على الأدب • وأنت تعلم أن من الشعر ما يكون آثما ومنه ما هو برىء صالح ، أما الآثم فهو الذى يفسد الذوق ويعود الناس الكذب ، ويضلل النفوس، وشعر حافظ من هذا النوع(١))•

وكان حافظ يفتش عن اللفظ المناسب للموضوع ، ويحاول التوفيق بين الموسيقى والغرض فموسيقى الغزل والرثاء غير موسيقى المدح والفخر والهجاء ، وكان يعتنى بنظم الشعر وتبديل الألفاظ فيقدم لفظة ويؤخر أخرى ويحذف ويبدل ، وكل ذلك بغية توفير الجمال لفنه ، وكان يسمى هذه العملية بـ (التذوق) ويمدح بعض الشعراء بأنه ذواقة ، وقد ذكر أحمد أمين فى المقدمة (أنه يصنع البيت فيردده على أذنه بانشاده اللطيف حتى يتبين موقعه من أذنه قبل أن يوقعه على آذان الناس، ويتذوق موسيقاه بنفسه قبل أن يتذوقها الناس)•

وكان حافظ يصرف جل اهتمامه فى شعره الى العناية باللفظ وجمال الصياغة فهو كما يقول

---

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ٩٧ عن شعر حافظ للمازنى ص ١٤

أحمد أمين فى مقدمة ديوانه (يذهب مذهب من يرى أن المعانى مطروحة فى الطريق ، وانما الاجادة فى الصياغة ، وهو يستعين على ذلك بالموسيقى ، موسيقى اللفظ ، وموسيقى الاسلوب وموسيقى الأوزان والقوافى (١)). ويقول الدكتور عبد الحميد الجندى (كان حافظ يعتنى بتوفير عناصر الجمال اللفظى لشعره ، وكان احتفاله بالمعنى لايساوى شيئا بجانب احتفاله باللفظ (٢)) واستمر الدكتور ونقل كلاما عن الشيخ (عبد العزيز البشرى) صديق حافظ فقال (انه ليؤمن قبل كل شئ بالصنعة والديباجة ونسج الكلام ، وما بعد هذا عنده ففضل ، وهو يرى أن جلال الشعر وبهاءه ليسا فى التعلق بدقائق المعانى ، وأن أدق المعانى وأجلها قد تقع للدهماء فى حوارهم ومنازع كلامهم . أما اشراقة الديباجة ونصاعة القول وتلاحم النسج ورصانة القافية فذلك الشعر). ويقول حافظ عن نفسه (أما أنا فأميت المعنى اذا لم يتفق لى لفظ رائع (٣)).

ولعل مبعث عنايته باللفظ أنه كان يخاطب العامة والشعب ، وهذا يتطلب منه أن ينتقى اللفظ القوى الجذاب ، ولهذا الجانب من شاعريته قل غريب الألفاظ فى شعره قلة ظاهرة وذلك حتى يستوعب الشعب شعره فى سرعة ويسر ويقع من قلوبهم موقع الرضى والاعجاب.

وقصيدته التى يهنئ فيها سعد زغلول بنجاته من الاغتيال وهو يريد أن يسافر لمفاوضة الانجليز تعد من عيون شعره والتى مطلعها /

الشعب يدعو الله يا زغلول ... أن يستقل على يديك النيل

فليس فى هذه القصيدة من جديد فى المعنى وانما هى معان لا تخفى على أحد كتحذير الزعيم من خداع الانجليز ، وثناء على سعد بمعان شعبية ، وأكبر ما يأخذنا فى القصيدة روعة الاسلوب ، وجمال الصياغة ، وسبك التراكيب . ويقول الدكتور الجندى عن هذه القصيدة بعد استعراضها (وهكذا نجد القصيدة كلها أشبه بالخطبة منها بالشعر . وكل قصائد حافظ وبخاصة التى يلقيها فى المناسبات من هذا الطراز الشعبى . ولذلك كانت تقابل باستحسان الجماهير التى كان حافظ يحتفى برضائها كل الاحتفاء).

وعلى كل حال فالاعتناء باللفظ كان من عادة معظم شعراء العربية منذ القدم وهو شئ لايستهان به فى الجانب الشعرى ، لأن صياغة الشعر هى الفارق بينه وبين النثر اذا اتحد الموضوع . فقيمة الشعر فى لفظه لافى معناه ، وما أحسن اللفظ والمعنى اذا اجتمعا .

وحافظ من الشعراء المحافظين الذين ساروا على منهج الشعر القديم ولاسيما أن ثقافته

---

(١) مقدمة الديوان ص ٤٠
(٢) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ١٠٠
(٣) مجلة الهلال يونيه ١٩٢٨ م

كلها عربية وأنه تلميذ البارودى ، فنظم فى معانى الأقدمين وأغراضهم فى الرثاء الذى هو نصف ديوانه كما يقول ، وفى المدح والهجاء والفخر ... الخ .

وبعد أن قامت حركة التجديد فى الشعر وعلت صيحات دعاتها لبى حافظ داعى التجديد ونادى معهم بقوله :

آن ياشعر أن نفك قيودا　　قيدتنا بها دعاة المحال
فارفعوا هذه الكمائم عنا　　ودعونا نشم ريح الشمال

فهذه ولا ريب ثورة عارمة ضد القديم والاتجاه الى الأدب الاوربى فهل ياترى جدد حافظ فى الشعر العربى شيئا ؟ كلا والف كلا لم يجدد شيئا اللهم الا أنه استبدل الناقة فى الشعر القديم بالسيارة والقطار ، وما يناسب العباسيين بما يناسب عصره من الكلام .

أما المعانى والاساليب والافكار والأخيلة وانواع الشعر فلم يمسها بأى نوع من التجديد .

ولقد ظهرت على صفحة شعر حافظ آمال شعب مصر كلها ، وذلك استمدادا من مجالسته لزعماء مصر وطوائفها المختلفة ، فشعره يسير فى اتجاه الصحافة على اختلاف اتجاهاتها ، ولكنه يفوقها بسحر الشعر وبلاغة التعبير ، فكان يعبر عن ذلك بالاسلوب المناسب الذى يرى أنه أبلغ فى اثارة حماس المواطنين بما يتناسب مع هوى نفسه فحينا يوبخ الشعب على الاستسلام ، وحينا يبعث فيهم الحماس ويشجعهم وخاصة بعد قيام الثورة العرابية .

وشعر حافظ الوطنى كله منبعث من الحركات الوطنية التى تثير حولها ضجة بين أبناء الوطن مثل حركة الجامعة وأصحاب الكتاتيب ، وحركة المؤيد فى حرية المرأة ، أو حادثة (دنشواى) والمعركة التى حدثت للغة العربية الفصحى مع العامية ، وتتسع دائرة وطنياته وانسانيته فتشمل العالم العربى والعناية بالخلافة حيث أنها رمز للأمة الاسلامية ، وتمتد شاعريته لمواساة العالم الأجنبى بمواساة منكوبى الزلازل والبراكين ورثاء الزعماء والمشهورين . وكان رحمه الله يعتمد فى القاء شعره على نفسه لأن خبرته فى ذلك تزيد من رونق القصائد وبهجتها .

ولكن شاعرية حافظ تنضب من الشعر عامة والوطنى خاصة بعد توظفه فى دار الكتب ١٩١١ م كما سبق الاشارة الى ذلك وخوفه من الحكومة ، لأن السكوت من لوازم الوظيفة ، ولكن ذلك لا يبرر موقفه كما أشرت سابقا لأن بامكانه التوجه الى أنواع أخرى من الشعر غير السياسى والوطنى .

وشئ أخير أحب أن أقوله عن شعر حافظ وهو متفق عليه وهو عاطفته الصادقة فى أغلب شعره مما يبعث حماس الجماهير مما جعله يستحق شاعر الوطنية وشاعر النيل ، لأن ما يخرج من القلب يستقر فى القلوب ويبقى أثره فى السامعين أو القارئين والفن لا يعتبر فنا راقيا له قيمته الا اذا أبقى أثرا فيمن يستمتع بهذا الفن .

الفصل الثانـــى

الثقافـة عند حافـظ /

عند الحديث عن ثقافة حافظ ابراهيم نجدها متنوعة الروافد ، ومن المؤكد أن تكون مخزونـا كبيرا لو استمرت فى العمل وتحصيل النتاج ولكننا سرعان ما نجد مصادره تنشأ وتبدأ فى اعطـاء ثمرتها حتى تبدأ فى التقلص شيئا فشيئا ، والداعى لهذا هو طبيعة حافظ النفسية فهو ملـول لايتجه الى جهة معينة حتى يملها ويبحث عن جهة أخرى ٠

وثقافة حافظ على وجه العموم محدودة لا تصل الى التعمق فى أسباب البحث العـلمى والتفتيش عن الحقيقة بدقة وتفصيل ٠

وقد استقى حافظ ثقافته من عدة مصادر أهمها /

١ـ الدراسـة /

لقد ارتاد حافظ المدارس ونهل من طومها ، ولكنه لم يتمكن من مواصلة الدراسـة حتى أنه لم يكمل المرحلة المتوسطة حيث مل الدراسة وقيودها وواجباتها الثقيلة على نفسه ٠

والمرحلة الثانية من دراسته هى التى قضاها فى المدرسة الحربية ، وهذه الأخرى لـم تكن ذات جدوى لأن اليد المستعمرة قد عبثت بها ومسخت المواد العلمية المفيدة التى تنـور الأفهام وتصقل العقول وبقيت المواد التى تدرس فيها طبولا جوفاء لا تمت الى المعرفة بسـبب ولا تجدى نفعا ثقافيا ٠ وكل الموجود مجرد تمارين عسكرية تخدم مصلحة المستعمر ، الذى كل همه أن يخرج ضباطا طوع بنانه ينفذون أوامره ولايتصلون بماضيهم قد خدرتهم الرتـب العسكرية التى تنفخ الأوداج كالقط الذى يحاكى الأسـد انتفاخـا ٠

٢ـ الثقافة الخارجيـة /

لقد خلق حافظ شاعرا مفطورا على الشعر وحبه وحب أصحابه ، وقد فتح عينيه على الدنيـا والفراغ يملأ عليه نفسه ووقته كله له ، المدرسة وواجباتها وقد تركها ، فماذا يعمل ؟ والـى جانب هذا الوقت حباه الله بذاكرة فذة وقدرة على الحفظ عجيبة ، وقد ذكر عنه الدكتـور عبد الحميد سند الجندى (١) ما يدل على قدرة عجيبة فى الحفظ والاحتفاظ بالنصوص فى مخزون فكره ، ويروى بعضها عن صديقه الاستاذ أحمد محفوظ ٠

وقد اهتدى بفطرته الى السبيل الصحيح للثقافة الحقة التى تهمه كشاعر ألا وهى الالتفات الى التراث العربى من كتب فى الأدب ودواوين لفحول الشعراء الذين عاشـوا فى أزهـى عصور الأدب العربى كالعصر العباسى ونجده بذلك قد أكمل ثقافته التى تعـوزه

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ٦٩ ، ٧٠

ووسع معارفه من نواح متعددة فقد أكثر من قراءة كتب الأدب وأطال النظر خاصة فى كتاب الأغانى حيث روى كثير من المؤلفين عن أصدقائه أنه قرأ هذا الكتاب العظيم مرات ، كما روى عنه أنه كان يطيل النظر فى دواوين الشعراء ، ويتخير من شعرهم ويحفظ ما يتخير من أمثال شعر بشار ابن برد أو مسلم بن الوليد وأبى نواس ، وأبى تمام والبحترى ، والشريف الرضى ، وابن هانئ الأندلسى ، وابن المعتز ، والعباس بن الأحنف ، وأبى العلاء يقول أحمد أمين(١) (يدل على ذلك ما كان يحفظ من متنخل الأدب وعيون الشعر ، فاذا جلست اليه أخذ يسمعك من محفوظه ما يبهرك ، حتى لقد خيل الىّ أنه لو دون ما يحفظه لفاق أبا تمام فى اختياره (ديوان الحماسة) اذ كان حافظ يتخير بذوق العصر وروح العصر . وكان له حافظة قوية تسعف ذوقه وتلبى اختياره ، فما يختار جيدا من القول حتى يرتسم فى حافظته ويبقى فى ذاكرته ثم يتجلى ذلك فى شعره . لكنه مع ذلك لم يعكف على دراسة منظمة ، ولم يقرأ قراءة مستفيضة فى عمق ، ولم يرسم له خطة يلتزمها فى الدراسة ، بل كان كالنحلة تنتقل من زهرة الى زهرة ، وترتشف من هذه رشفة ومن تلك رشفة ، فهو يرضى ذوقه فى أوقات فراغه بالمطالعة فاذا عثر على اسلوب رشيق أو معنى دقيق اختزنه فى نفسه).

وقد عاقه عن المطالعة الراتبة المنظمة ، أنه كان ملول الطبع ، كما يدل عليه تاريخ حياته عمل فى المحاماة فلم تعجبه ، واشتغل فى البوليس فمله ، وفى الجيش فسئمه ، ولولا أنه كان حرا طليقا ــ الى حد كبير ــ فى دار الكتب لملها ايضا . ثم كانت هذه الفوضى فى قراءته يتبعها اهمال فى حياته الادبية ، فقلما يكتب قصيدته وقلما يحافظ على شعره ، بل لا نبالغ اذا قلنا أنه قلما كان يعنى أن يكون فى بيته دواة وقلم ، أو مكتبة منظمة . كان لديه كتب تبعثر فيأتى زائر ويأخذ جزءا من الاغانى وجزءا من غيره حتى أنه لما مات ــ رحمه الله ــ لم يكن فى بيته من الكتب غير جزء من تذكرة داود ، وجزء من تفسير الاحلام لابن سيرين(٢)

ولهذا نقرأ له قصائد فى مسائل لم يدرسها دراسة طيبة ، وقد لا يعلم عنها كثيرا ولا قليلا فقد روى انه رثى قاسم امين وأشار الى جهاده فى قضية المرأة مع انه لم يقرأ كتبه ، ورثى الأديب الروسى (تولستوى) ويقول الاستاذ أحمد محفوظ(٢) أنه (لم يقرأ له شيئا ولم يسمع به الا عرضا ، ولكن شوقيا رثاه فلا بد أن يرثيه والسلام) وروى انه قال قصيدة فى ذكرى شكسبير تدل على أنه لم يقرأه قراءة عميقة شاملة . وحينما أتم الاستاذ لطفى السيد ترجمة كتاب (الأخلاق) لأرسطو ، حياه بقصيدة تنبئ عن جهله التام بأرسطو وكتابه (٣) وكان يضيق دائما بألوان المعرفة

(١) مقدمة الديوان ص ٢٠
(٢) حياة حافظ ابراهيم ص ١٩٥
(٣) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ٧١

التى تتطلب من طالبها التعمق وطول التفكير .

ولم يكن يكره شيئا أكثر من كرهه للأعمال الرتيبة التى تسير على وتيرة واحدة ، ولهذا فهو يكره النظام والانضباط بأوامره ، ولعل ذلك هو سبب فشله فى حياته وأعماله كلها ليس فقط عمله فى السلك العسكرى .

وهناك جانب آخر من جوانب ثقافته عن طريق القراءة الحرة ، ألا وهو المامه باللغة الفرنسية التى تعلمها على ما يبدو أثناء تعطله عن العمل بعد ان تم فصله من الجيش وقبل أن يلتحق بدار الكتب ، وقد ترجم كتاب (البؤساء) لفكتر هيجو لأنه أعجبه نظرا لحياة البؤس التى كان يحياها وقتئذ ، كما أن (احمد حشمت) وزير المعارف فى وقته قد اسند اليه مع (خليل مطران) ترجمة كتاب (الموجز فى الاقتصاد) ولكن يبدو أن جهده فى هذه الأعمال كان ضئيلا فلم يتقن البؤساء ، وكان يستعين بالشيخ محمد عبده فى ترجمته ولم يشارك بالفعل فى تعريب الموجز سوى التقديم ، ولم يظهر أثر ذلك على شعره حيث لم يجدد فى فنون الادب العربى ولا أساليبه ، ولم يلتفت الى الشعر الغربى لفتة واحدة تبين تأثره بأدباء الغرب .

ومن ذلك نستطيع أن نحكم أن ثقافته كانت عربية خالصة محدودة لا تصل الى سعة وتعمق الادباء أمثال العقاد او شوقى رحمهما الله . هؤلاء الذين أتحفونا بكل طريف وتليد من الادب العربى والاجنبى القديم منه والحديث .

وأثر هذه الثقافة العربية المحدودة فى شعر حافظ ظاهرة بين حيث لم يستطع الخروج عن الطريق الذى رسمه الشعراء القدامى الذين قرأ شعرهم وتنكب طريقهم رغم أنه أعلن أنه مل تلك القيود ويتطلع الى ريح الشمال حيث أنه لا يملك القدرة على الافلات من قيود الشعر القديم والانخراط فى سلك الادباء الذين يضارعون أدباء الغرب فى المادة والاسلوب ، فأسلوبه عربى خالص وشعره يعتبر قطعة من الشعر العباسى لولا اقترانه ببعض الحوادث فى العصر الحديث ، وان خالف عمود الشعر العربى القديم فهو استبدال الناقة بالسيارة والقطار أو ما يشابه ذلك .

٢ـ الأســـاتذة /

ولعل من أكبر مصادر ثقافته اساتذته الذين كان له مساس بهم ينهل من مناهلهم العلميــة ويسير فى بحورهم . ويتردد على منازلهم وحلقات علمهم .

وأبرز هؤلاء الأساتذة اربعة رجال كان لهم الفضل فى معظم رجال مصر وأدبائها شعراء وكتاب ومصلحين . وهم /

١ـ السيد توفيق البكرى ، فقد كان حافظ رحمه الله يتردد على داره بشغف معجبا به وبآرائه وعلمه ، وكان يلتقى هناك بنفر من أفاضل العلماء الذين يغشون مجلسه امثال الشيخ محمد الخضرى والشاعر اللغوى حفنى ناصف ، والشيخ الشنقيطى ، وكان صاحب البيت وضيوفه يخوضون فى احاديث الادب واللغة ، وليس من شك فى أن حافظا قد تزود من هؤلاء الجلساء بقدر طيب من الفاظ اللغة وتراكيبها وساعده على ذلك حافظة لاقطة وذاكرة واعية ، فظهر أثر ذلك علـى شعره فى اسلوب رصين ، حتى أن القارئ لشعره فى بعض القصائد يحس أنه أمام بحر خضم فى اللغة وآدابهـــا .

٢ـ وثانى هؤلاء الأساتذة الذين كان لهم ابلغ الاثر فى ثقافة حافظ وشاعريته هو الشاعر اسماعيل صبرى الذى كان يلقب (شيخ الشعراء) وكان منزله مثابة للشعراء امثال شـوقى ومطران واحمد نسيم ومحمد عبد المطلب وعبد الحليم المصرى وغيرهم من شباب الشعـراء وكانوا جميعهم يعتبرون اسماعيل صبرى استاذهم جميعا ، يعرضون عليه اشعارهم ويستشهدون بآرائه القيمة ويعتبرونه شيخهم فى هذه المهنة ، وعند ما توفى رثاه حافظ معترفا بهـذه العلاقة وفضلها عليه /

ولقـد كنت أغشـاه فى داره ونادية فيها زهـا وازهـرا
واعرض شعرى علـى مسـمع لطيف يحس نبـو الوتـر
على سـمع باقعـة حاضـر يميز القـديم من المبتـكر
فيصقل لفظى صـقل الجمان ويكسوه رقـة أهـل الحضر
يرقرق فيه عبـير الجنـان فتستاف منـه النهى والفكر

فاعتراف حافظ فى هذه الابيات يغنى عن التعليق بظهور أثر هذا الاستاذ فى شعر حافـظ ولعل استاذية اسماعيل صبرى لحافظ لم تكن مقصورة عليه وحده ، حيث كان حافظ يلتقى عنـده بالشعراء فيستفيد منهم هم الآخرين ، فيأخذ من هذا فكرة ومن هذا اسلوبا او لفظة تروقـه فيختزنها فى ذهنه ليجدها عند الحاجة اليها ساعة يفتش مخزونه من اللغة .

٣ـ وثالث هؤلاء الاساتذة هو الشاعر الكبير (محمود سامى البارودى) رب السيف والقلم والذى كان يطمح حافظ ليكون مثله ، حتى أن حافظا معجب به منذ نعومة أظفاره ، فيطمح الـى أن

يكون شاعرا مثله فسلك طريقه فى سبيل الثقافة ، ويطمح ان يكون ضابطا ولهذا دخل المدرسة الحربية ، يقول الدكتور عبد الحميد سند الجندى (١) أثناء تعليله سبب دخوله المدرسة الحربية (وثانيهما ــ الاسباب ــ أنه كان معجبا بالبارودى اشد اعجاب ، وكان يعتبره مثله الأعلى وقدوته الحسنة ، فأراد أن يكون رب السيف والقلم مثله ، يطير ذكره فى الآفاق وتلقى اليه مهام الامور)٠

ويقول احمد امين (٢) (وكان له أسوة حسنة فى محمود سامى البارودى باشا ، فقد تخرج فى المدرسة الحربية ، وتعلم فنونها ، وترقى فى رتب الجيش وخاض معامع القتال وكان رب القلم ، كما كان رب السيف ، وكان مؤسس النهضة الحديثة فى الشعر ، اعاد اليه بهجته الاولى ونضارته وقوته فاتخذه حافظ مثله الاعلى يحذو حذوه ، ويختط نهجه ، ويأمل ان يبلغ فى الحياة مبلغه فيكون ذا الرئاستين ، وحامل اللواءين ٠ وقد عبر عن تقديره للبارودى واعجابه به فى قصيدة يمدحه بها /

أمير القوافى ان لى مستهامة ... بمدح ومن لى فيه أن أبلغ المدى

أعرنى لمدحيك اليراع الذى بـه ... تخط واقرضنى القريض المسددا

ومر كل معنى فارسى بطاعتى ... وكل نفور منه أن يتـودد دا

وهبنى من أنوار علمك لمعـة ... على ضوئها أسرى وأقفو من اهتدى

وأربو على ذاك الفخور بقوله ... (اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا)

ومدحه فى هذه القصيدة بالاجادة فى الحماسة والنسيب واللعب بالسيف والتفنن فى التشبيب ، فكأنه فى مدحه للبارودى يرسم لنفسه مثله ، ويحدد مستقبله ، وقد قلد البارودى ايضا فى ناحيتيه الأدبيتين ، فقد عنى البارودى بالتخير من شعر فحول الشعراء ، واختار لثلاثين شاعرا من الشعراء المولدين ، ثم انشأ شعره وجود نظمه وكذلك فعل حافظ فقد تخير وشعر وحفظ ونظم ، ولكن قعد بحافظ عن جمع مختاره ما عهد فيه من اهمال ، ولولا نعمة الصحف والمجلات تنشر له بعض مانظم لكان مصير شعره مصير مختاره ٠

ولكن شاء الله أن يقارب شأو البارودى فى دولة القلم لافى دولة السيف فانتهى ــ على عجل ــ تاريخ حافظ الحربى باحالته فى شبابه الى المعاش واستمر ــ طول حياته ــ تاريخه الأدبى فلم يتحقق الا شطر رجاء يه ، ولم يدرك من البارودى الا احدى دولتيه ٠

وقد كان حافظ مع زملائه الشعراء يترددون على البارودى فى منزله بعد ان عاد من منفاه . ويعرضون عليه ما انتجته قرائحهم ، وكان الاستاذ لايبخل عليهم بتوجيهاته ٠

---

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ٢٠
(٢) مقدمة الديوان ص ١٣

وقد كان تأثر حافظ اظهر من غيره مثل شوقى ، لأن حافظا وقف عند منهج البارودى من حيث الاعتماد على الثقافة العربية وعدم التطلع الى الثقافة الاجنبية على العكس من شوقى .

والخلاصة ان حافظا تأثر باستاذه اشد تأثير من ناحية ايثاره للجزالة وقوة العبارة ، ولكن هذه الظاهرة اكثر بروزا عند البارودى منها عند حافظ لأن الفخر الذى كانت تتصف به نفسيته اشد فنون الشعر حاجة الى الألفاظ المجلجلة الفخمة التى تملأ النفس وتهز الشاعر ، ولا نشك أن حافظا استفاد من ثروة استاذه اللغوية ، والتى تبرز كثيرا للعيان فى كثير من اشعاره التى كان يفخر فيها باسم الوطن وأهله .

٤ـ ورابع الاساتذة هو الشيخ محمد عبده ، فقد كان حافظ الضابط الشاب يلم بحلقة الامام عصر كل يوم فى الازهر فتمتلئ نفسه اعجابا ، لانه يرى منه منطقا فى التفكير لاعهد له بمه من قبل ، فيلزم الحلقة ، ويزداد اعجابه بالشيخ فيدبج له قصائد المدح ويوقع عليها بكلمة (فتاك) .

وبعد ان رجع من سفره الى السودان وقد احيل على المعاش لازم الشيخ وصار له كظله فأفاد منه علما وخلقا وادراكا صحيحا لشؤون الحياة ، كما افاد من مجلسه التعرف الى عظماء مصر وكبار رجالاتها وقادة الرأى فيها امثال مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول وقاسم أمين وغيرهم من زعماء السياسة والفكر والادب ، وكانت مجالس الامام مجالا لبحث ألوان العلم والعرفان ، وعرضا لأحوال مصر خاصة والبلاد العربية عامة وتبيين عيوبها ومحاولة اصلاحها وقد افاد حافظ من ذلك كله ثقافة مختلفة الالوان شهية المذاق ، ما كان يجدها فى الكتب والدفاتر ، كما عرف عن استاذه الشيخ مناهج التفكير السدد ومسالك الجدل القويم .

ويصف حافظ مجالس الاستاذ الامام فى كتابه ليالى سطيح (١) فيقول (فلقد كنت ألصق الناس بالامام ، اغشى داره وأرد أنهاره والتقط ثماره ، فما سمعته يخوض فى ذكر السياسة قبحها الله ـ لانه يذكر فى موضع آخر أنه طلقها ـ ولكنه كان يملأ علينا المجلس سحرا من آياته ويتنقل بنا بين مناطق الأفهام ومنازل الاحلام ويسمو بأنفسنا الى مراتب العارفين بأسرار الخلائق وحكمة الخالق ، وكان ربما ساقه الحديث الى ذكر احوال هذا المجتمع البشرى فأفاض فى شؤون المجتمع وحاج العمران ووقف بنا على اسرار الحياة ، ولم يزل ذلك همه رحمه الله يلقى فى الازهر دروس التفسير وفى داره دروس الحكمة حتى مضى سبيله) .

ونحن لانجد احدا من المثقفين المصريين فى العصر الحديث الا وقد تلمذ على الشيخ محمد عبده ، فقد تخرج من مدرسته جيل صاعد من الشباب مستنير العقل واسع الأفق

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ٩٢

وقد كان شوقى يسمى تلاميذ الامام (حزب العلم والعرفان) وتعاليمه (سياسة التقدم والعمـــران)٠

وقد كان حافظ من اقرب تلاميذ الشيخ ، ولا أدل على ذلك من أن الشيخ كان يصطحبـــه معه فى نزهاته ورحلاته ، واطلاعه على بعض أسراره ، ونظرا لهذه الحظوة التى نالهـــا حافظ من الشيخ صار موضع حسد ومنافسة ، فكان هناك من يحاولون جاهدين فى ان يفرقوا بـين التلميذ واستاذه ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون ان ينالوا من هذه العلاقة أى منال ، ويشير الـى ذلك فى بيتين بعثبهما الى الامام الشيخ/

لقد بت محسودا عليك لأنـــنى فتاك وهل غير المنعم يحسـد
فلا تبلغ الحساد منى شماتـــة فعفلك محمود وأنت محمــد

ومن هذه العلاقة الوطيدة لابد ان يسير شاعرنا على خط سير الامام وهذا أمر طبعـــى ولكن هناك شهرة حافظ ابراهيم بعدم لزومه لونا واحدا من السياسة بداع من ملله ضعــف شخصيته ، ولهذا تخلى عن منهج الشيخ وهو المهادنة للمحتلين الى سياسة المداهنة للحفا ظ على منصبه وسلامته من غياهب السجن والبعد عن وطنه بالنفى والتشريد كما حصل لغيره ، وعلى كل حال فصحبة حافظ للامام قد عادت عليه بأشياء عظيمة فى مجال ثقافته وشعره وسلامة فكرتـــه وعقيدته ، وصدى ذلك واضح فى شعره واتجاهه السليم٠

٣ـ المجالس /

يقول احمد أمين (١) (وشىء آخر يعد صدرا كبيرا من مصادر ثقافته ، وهو كثرة غشيانـــه لمجالس العلماء وقادة الرأى فى الأمة ، فقد اتصل بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وهو نفســه فتاه ، وكان يحضر بعض دروسه التى يلقيها على نخبة من الفضلاء فى منزله بعين شمس، ويجلس فى مجالسه ، وقد يصحبه فى اسفاره ، ثم يغشى مجالس امثال سعد زغلول ، وقاسم امين ، ومصطفى كامل ، ونحوهم ، وكانت مجالسهم مدارس من ارقى المدارس ، تطرح فيها المسائل العلميـــة والمعضلات السياسية ، والمشكلات الاجتماعية ، وتعرض فيها الحلول المختلفة ، وتبسط فيهـــا ادواء الامم ، وكيف عولجت ، وما الى ذلك ، وحسبك بمدارس كان المعلم فيها امثال محمد عبده وسعد زغلول ومصطفى كامل ، ولعل هذا كان اكبر منبع استقى منه حافظ افكاره التى صاغهـــا فى شـعره ٠

ثم كان له مجلس من الادباء فى المقاهى والمنتديات امثال خليل مطران ، والبشـــرى ، وامام العبد ، وكانت مجالس تجتمع فيها الفكاهة الحلوة ، والنادرة الطريفة ، ويستعرض فيهـــا الادب وطرائفه ، فكان كل منهم مفيدا ومستفيدا ، عارضا سامعا)٠

احمد امين يقول هذا الكلام عن معرفة خاصة ، وما من شك فى اثر هذه المجالس على شاعرية

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢١ ، ٢٢

حافظ ومعانيه ونتاجه الادبى المختلف ، فقد استقى من هذه المجالس السياسة والعلم والادب والمبادئ المختلفة ، والمال الذى يقيم به حالته الاجتماعية ، ولم يكن هؤلاء هم جلساؤه بل هناك أمثال حمزة فتح الله ، وابراهيم اليازجى ، ومحمد المهدى ، والبارودى ، واسماعيل صبرى وحفنى ناصف ، واحمد حشمت ، وعلى يوسف ، وابراهيم المويلحى ، وابنه محمد ، وسواهم من كل من يجرى فى العلم والادب على عرق كريم • وساعده على الاستفادة من هذه المدارس حدة ذكائه وقدرته على الحفظ واستيعاب كل او معظم ما يسمع•

وكان رحمه الله يقوم برحلات الى الأرياف ويجتمع بالطبقات المختلفة فيفيد منهم خبرة تزيد ثروته الثقافية ، ومالا يستعين به على نوائب الحياة•

وله مجالس خاصة — غير التى اشار اليها الدكتور احمد امين — تنعقد فى المقاهى والمشارب وأماكن اللهو ويجتمع مع ابطال الفكاهة والتسلية والادب ، ولا يفوته مجلس من هذه المجالس، وخاصة انه لم يرتبط بعائلة ولا أسرة ، ومن هذه المجالس(١) مقهى (نيوبار) الذى كان يرتاده خليل مطران وهناك يحضر شيخ مطربى ذلك العهد (عبده الحامولى) ويجتمع اليه مجموعة كبيرة من علية القوم وعشاق فنه ، ومنها مقهى (مشيدى) وهو مجتمع الظرفاء واصحاب الفكاهة، ومقهى (متاتيا) وهو مقصد ألمع أدباء العصر ، وكان يعرض حافظ فى هذا المقهى شعره على رواده امثال مطران وولى الدين يكن وابراهيم الدباغ وفؤاد الصاعقة• ولا يذيعه حتى يرضوا عنه جميعا فى كثير من الأحيان•

ومن مقاهيه التى يجتمع فيها بطبقات الادباء مقهى (سبلندد بار) ومعظم من يرتاده أدباء الشام، وكان يتردد على (بار دركاتوس) و (بار الكشكول الاحمر) ويجد اصدقاءه من رواد هذه الانواع من المجالس، ويحتسون المدام وفيها يقول /

أوشك الديك ان يصيح ونفسى — بين هم وبين ظن وحدس
يا غلام المدام والكأس والطـا — س هيئ لنا مكانا كأمس
واسقنا يا غلام حتى ترانـا — لا نطيق الكلام الا بهمس
خمرة قيل انهم عصروها — من خدود الملاح فى يوم عرس
مذ رآها فتى العزيز مناما — وهو فى السجن بين هم ويأس
اعقبته الخلاص من بعد ضيق — وحبته السعود من بعد نحس
يا نديمى بالله قل لى لماذا — هذه الخندريس تدعى برجس

وكان تجاوز الله عنه يتردد على بعض الملاهى المتحشم منها والمتطرف ، امثال مسرح الشيخ سلامة حجازى الذى يعرض فيه كثير من المسرحيات الراقية مثل مسرحية (روميووجولييت)و(صلاح الدين) وكذلك مسرح (سليمان القرداحى) والذى كان يقدم بعض مسرحيات شكسبير وفكتور هيجو•

---

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ٧٥

وأما الملاهي العابثة في مثل ملهى (سلطانة) وملهى (كامل الاصلى) الممثل الهزلي وملهى سيد قشطة وملهى بكسر وغيرها ٠

ولا شك ان حافظا قد غذى عبقريته من هذه المجالس كلها بفوائد عظيمة زادت من ثقافته ونمت معارفه ، وكانت مادة دسمة صاغ منها كثيرا من أفكاره في شعر جميل تـــردده الأجيـــال من بعـــده ٠

٤ـ الصحـــف /

من المعروف ان الصحافة عامل مهم في بناء النهضة العربية الحديثة وطريق من طرق توعية وتثقيف الشعوب والرفع من المستوى الاجتماعي ، فالصحافة دليل واضح على المستوى الذى وصل اليه المجتمع الذى صدرت عنه ، وكثرتها وتنافسها تبعث على رقي هذه الصحف والمجلات ٠

وما من ريب في ان الاديب الذى يتصل بأكبر عدد من الصحف ان يتحصل منها على قدر كبير من الثقافة ويستمد منها مادة ضخمة لشعره وشاعريته ان كان شاعرا ، او لمواضع كتابته ان كان كاتبـــا ٠

وأمامنا كتب الادب التي كتبها اصدقاء حافظ ابراهيم والمجلات والصحف القديمـــــة التي كانت تصدر في وقته تدلنا على ان حافظا كان يتصل بمعظم الصحف والمجلات ، ولـــه مع اصحابها علاقة وطيدة ، وقد اشار الدكتور عبد الحميد الجندى(1) الى هذه العلاقـــــات القوية التي تربط حافظا مع اصحاب هذه الصحف ومحرريها حيث كان يتردد على دورهـــا ويقضي الساعات الطوال مع المسئولين عنها ، فيتزود منهم بمعارف مختلفة في السياسة والادب والاجتماع ، هذا الى جانب ما كانت تمده به هذه الصحف من ثقافات مختلفة ، وكانـــت جميعها تفسح له صفحاتها وتشجعه وتدفعه نحو عالم الشهرة ٠

فقد اتصل بأشهر الصحف المصرية وهي الاهرام التي تؤيد الحركات الوطنية ، وقد اتصـل بصحيفة المقطم ، وهي ضد الاهرام تؤيد الاحتلال ، وكان ينشر فيها ما يوافق اتجاههـــــا من مدح للانجليز أو رثاء لعظمائهم ، وله اتصال بالشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيـــد وهو الذى لقبه بشاعر النيل لينافس به شوقيا ، وقد اتصل كذلك بمجلة المنار التي كان يرأسها زميله العلامة محمد رشيد رضـا ، وكانت تربطه به علاقة الزمالة عند محمد عبده ، وكان ينشر فيها كل ما يتصل بالامام الشيخ ، كما ان له صلة وثيقة بصحيفة (مصباح الشرق) التي أنشأها صديقـــه ابراهيم المويلحي وابنه محمد ، اما جرجي زيدان صاحب (الهلال) فهو صديق مخلص لحافـــظ

---

(1) حافظ ابراهيم ٠

كان يشجعه ويعرفه على الادباء المشهورين فى زمنه ، فاستفاد منه علما ومعرفة ، واتصل كذلك بمجلة (سركيس) التى انشأها سليم سركيس الذى كان له اياد على حافظ ابراهيم والرفع من شأنه فى الندوات وجعله فى صف شوقى • وهو الذى يقول فيه حافظ أثناء حفل أقامه سليم ، خصص عائداته لبعض المحتاجين /

لولا سليم لم يقل قائل ولم يجد من جاد بالأمس
لله ما أشجعه انه ذو مرة فينا وذو باس

وكان له اتصال بصحيفة اللواء الحرة ورحب به الزعيم مصطفى كامل وهو الذى لقبه شاعر الوطنية ، وخلع عليه لقب (شاعر الحزب الوطنى)•

كما انه قد تأثر بصحيفتى (التبكيت و التنكيت)والاستاذ اللتين أنشأهما متعاقبتين المرحوم عبدالله نديم وهما مشهورتان بنقد المجتمع ومحاولة اصلاحه •

وقد تهجم على (توفيق الحمارة) صاحب صحيفة مجلة (حمارة منيتى) تهجم عليه عندما تعرض للشيخ محمد عبده واتهمه باتهامات باطلة مزورة • ولم يخش لسانه السليط الذى وقفه على هجاء اعراض الاشراف والنيل منهم ، فيتحاشونه بالمال والمداهنة •

فهذه أشهر الصحف التى اتصل بها ، واستمد منها الفكرة ،والاسلوب والثقافة العامة فى السياسة والتاريخ والادب والدين•

وبعد ان استعرضنا اهم اسباب وعناصر ثقافته ، احب ان أشير الى عنصر مهم له دور مهم فى طبع شعر حافظ بطابع خاص ألا وهو حياته وتجاربه فيها ، حيث قد عاش عيشة بائسة وخاصة فى ربيع حياته لازمه اثرها فاصطبغ بهذا اللون شعره واتجاهه فى الحياة ، فقد عاش يتيما وفقيرا ، ومحاميا فاشلا ، وجنديا مضطهدا ثم عاطلا بدون عمل لمدة بضع سنوات وعاش عيشة الفقراء والبائسين المعوزين ، كما انه جرب حياة الاغنياء والزعماء وافادته تجاربه مقدرة على تصوير حياة المجتمعات على اختلاف طبقاتها ، بعد ان استخلص منها العبرة والنكتة والفكرة ، والخاطرة التى ترد من هنا وهناك•

الفصل الثالث / الخيال فى شعر حافظ

أولا ـ مقدمة فى الخيال وأثره فى الادب /

لابد للادب من عدة عناصر تختلف درجة الاهمية فى بناء الجسم الادبى ،ومن هذه العناصر ، العاطفة والخيال والمعانى والاسلوب ... والذى اريد ان اتحدث عنه هو الخيال /

فماهو الخيال ؟ وما دوره فى بناء الجسم الادبى ؟

لقد حاول النقاد تعريفه ، وهو احد المعانى التى يصعب تعريفها والاحاطة بكنهها يقول الدكتور احمد امين(١) (ان تعريف كل المعانى عسير ، ومن اسباب صعوبة التعريف ان الكلمة تستعمل فى انواع مختلفة من العمليات العقلية ، وكما قال رسكين ((ان ملكة الخيال غامضة لا يمكن تعريفها انما يمكن معرفتها بأثرها))فلنصف ملكة الخيال بآثارها المختلفة ، اذا تصورت فى ذهنى صورة حيوان رأسه رأس طائر وجسمه جسم كلب ، فهذا يسمى خيالا ، وان كان ذلك خيالا بسيطا ، لان رأس الطائر قد رأيته ، وكذلك جسم الكلب ، وانما الجمع بينهما هو عمل الخيال).

فالخيال فى حد ذاته ما يتصوره الانسان فى ذهنه من تصور لحقيقة يجمع العقل فيها بين علاقات مختلفة قد لايكون لها اصل فى الحقيقة ، ولكن هذا التعريف قد لا يكون مقنعا لان التعريف السليم هو الذى يكون جامعا لأطراف المعرف مانعا من دخول غيره معه فى التعريف .

وبهذا نعرف ان الخيال يفترق عن التفكير ، لأن التفكير (٢) يقوده غرض محدود هو محاولة معرفة الحقيقة ، فهو استكشافى محض لا يفترض شيئا ولا يخلق علاقات جديدة بين الأشياء ولا يغير فى اشكالها وعناصرها ، اما الخيال فلا يقف عند ذلك بل يعمد الى تغيير هذه العناصر غير مقتنع بعلاقاتها ، بل يضيف اليها علاقات جديدة تنتزعها من واقعها نزعا فى كثير من الأحيان ، فالتفكير موضوعى لا يبدل فى الحقائق الواقعة ، وانما يحاول فهمها وبيانها اما الخيال فذاتى يبدل فى هذه الحقائق ويغير حسب تصور الاديب اذ يشكلها اشكالا جديدة ، اشكالا يبعث فيها من روحه ما يعيدها خلقا نابضا بالحياة.

وبهذا يظهر الفرق بين العالم والاديب ، فالاديب من خياله فى نعمة ودنيا واسعة يستطيع ان يتصرف كيف شاء.

---

(١) النقد الادبى لاحمد امين ص ٥٤

(٢) فى النقد الادبى لشوقى ضيف ص١٦٧

وبعض انواع الادب تحتاج الى الخيال اكثر من بعض، لأن الخيال يلعب فيها دورا مهما فى بناء جسمها الادبى المكتمل ، فالشاعر والروائى يحتاجان الى قدر من الخيال اكبر مما يحتاجه قائل الحكم والامثال.

وكل انسان يعيش فى خيالات مختلفة ، الصغير والكبير سواء التفكير فى الماضى الذى كان يجيئ على غير صوره التى كانت او المستقبل المنظور الذى يجب ان يكون على اشياء نتمناها وهى مرتسمة فى أذهاننا.

والخيال بالنسبة للادب قوة نادرة يضفى على الادب طاقة جذابة بما يعطى الحقيقة من الاشكال والالوان الممتعة الجديدة التى يشوق النفس الاطلاع عليه.

ولكن هناك نوع قد يتصور الانسان انه خيال ولكنه ليس فى الواقع من الخيال فى شىء وهو اقرب الى الخرافات منه الى الخيال الذى فيه متعة ودليل قوة العقل وسلامة التفكير ، وهذا النوع هو (الوهم) وأقرب مثال على ذلك بعض الاحلام التى يراها الانسان مما لا يمكن ان يتحقق ولا يعقل ان يتحقق لتنقله بين فئات مختلفة من الاشكال والاماكن والقدرات الخارقة والتصرفات التى لا يدركها الشخص بعد ان يصحو من نومه بعد ادراك العقل لها ، وبهذا يفترق الوهم عن الخيال ، فالوهم مستكره لا يرتبط بالعقل ، أما الخيال فهو ممتع شيق له ارتباط وثيق بالعقل والمعقولات.

وقد قسم الدكتور احمد امين (١) الخيال الى ثلاثة أقسام /

١ـ خيال خالق . ٢ـ الخيال المؤلف . ٣ـ الخيال الموحى او المومز.

فالخيال الخالق هو الذى يخلق العناصر الاولى التى تكتسب من التجارب صورا جديدة لا تنافى الحياة المعقولة ، فان تنافت الصور مع المعقول سمى هذا الخيال وهما.

اما النوع الثانى وهو الخيال المؤلف الذى يؤلف فيه صاحبه بين عدة أشياء يتصورها فيربط بينها بعلاقة يستنتجها من مخيلته ، كما عمل ابن الرومى فى الربط بين انداح الرقاقة فى يد الخباز وأثر الحجر يلقى به فى الماء ،

ما انس لا انس خبازا مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
مابين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى لجة البحر يلقى فيه بالحجر

فصورة العجينة المتكورة تتسع اثارت من مخزون فكره الدوائر فى الماء بعد سقوط الحجر

---

(١) النقد الادبى ص ٥٦ ، ٥٧

فيه ، فألف بين الصورتين مستنتجا تلك العلاقة من خياله الخصيب.

أما الخيال الموحى ، وقد عرفه احمد امين (١) فقال عنه (ويختلف عما قبله من الخيال المؤلف بأنه بدل ان يقرن صورة بصورة يفيض على الصورة التى يراها صفات ومعانى روحية تؤثر فى النفس،وبعبارة اخرى يغوص فى باطن الشئ فيصل الى مكان الحياة منه ، ثم يخرجه الى الناس كما يشعر به ، ويستطيع الاديب ان يصل به الى قمة الشئ الروحية ، ثم يظهر صفاته مظهرا أخاذا ...) ومثال ذلك قول ابن الشبل البغدادى فى وصف الانسان /

متصرف وله القضاء مصرف	ومكلف وكأنه مختار
طورا به تصبو الحظوظ وتارة	حظ تحيل صوابه الأقدار
فتراه يؤخذ قلبه من صدره	ويرد فيه وقد جرى المقدار
فيظل يقرب بالملامة نفسه	ندما اذا لعبت به الاقدار

وهذا النوع من الخيال هو الذى يوضح لنا الطبيعة ووصفها لانه يعبر لنا عن ما توحى به من معان خفية تتصل باعماق الشاعر بايحاء من مظاهر الطبيعة ، ولذلك فان الخيال فى وصف مظاهر الطبيعة يؤثر اكثر مما يؤثر الوصف الذى لا يعدو الحقيقة فلنتصور وصف البحترى لايوان كسرى وانه لا يدرى أصنع أنس لجن أو جن لانس ... او وصفه لبركة المتوكل ووفود الماء معجلة كالخيل أرسلة كالفضة ، والنسيم الذى يبدى لها حبكا كالجواشن المصقول الحواشى .

وقد دلت التجارب على ان المناظر اذا عرضت على عين الخيال والعقل ، كانت أجمل مما اذا عرضت على العين الحسية ، وكلما قوى خيالنا قويت لذاتنا ، وقوة الخيال تصحب النظر بأخذ أساس الشئ وتسريح الفكر بالخيال فى القوة الروحية التى تتصل بالأساس.

والخيال ليس مقصورا على وصف المناظر الطبيعية ، بل يتعداها الى الاخلاق والشخصيات وغير ذلك مما يقبل التوسع فى مادته .

والرواية من اهم الاشياء التى تعتمد على الخيال ، فاذا ضعف فيها عنصر الخيال ضعفت قيمة الرواية ، وذلك اذا اتجه مؤلفها الى التحليل النفسى :

وتقسيم الخيال الى اقسامه المتقدمة ليست الا لأجل التوضيح كما اشار الى ذلك الدكتور احمد امين ، والا فان هذه الاقسام لا تتميز تميزا ظاهرا ، فكل عمل ادبى يدخل فى دائرة الخيال عليه مسحة الانواع الثلاثة.

والخيال مهم جدا فى الادب وانواعه ، وكلما ارتفع الادب زادت حاجته الى الخيال المجنح والعكس بالعكس.

---

(١) النقد الادبى ص ٥٧

ويلعب الخيال دورا مهما فى التاريخ لاكمال ما ينقصه ، وللربط بين الحوادث التاريخية ووصفها للقارئ كأنه يرى ما يقرأ عنه ، ولان التاريخ يفقد أشياء تضيع عبر الزمن ، ولابد منها فيستنتجها المؤرخ من خياله بما يرتبط بالحادث الاصل ٠

والخيال لايقتصر على الشعر فقط ، وانما يدخل فى النثر الفنى اى الادبى ، اما العلمى فلا مجال فيه للخيال ، وأنسب أنواع الخيال للنثر هو الخيال المؤلف ٠

والخيال والسرحان فيه لايخص الاديب وحده ، وانما هو مهم حتى للقارئ والمتعلم ، لأن القارئ يستعين بخياله على فهم الاساليب الادبية والحقائق العلمية ، اما المتعلم وخاصة الاطفال لايستغنى عن الخيال فى تصور ما يتعلم لاستعماله وتطبيقه فى حياته العملية ، والتقدم العقلى للأطفال يكون مرتبطا اذ ذاك بقوة خيالهم على رسم هذه الصورة ، فاذا تقدم السن كان الخيال عاملا كبيرا فى تضيح ما نقرأ او نسمع ، وفى ربط الاسباب بالمسببات ، اذا فهناك خيالان ، ادبى و علمى ، فالعلمى نتيجة لدافع عقلى ، والادبى نتيجة لدافع ادبى ، وكلاهما يعطينا صورة واضحة للشئ ، وهذه الصورة احيانا تهم العقل ، واحيانا تهم العاطفة (١) وللخيال كما يشير النقاد ارتباطه بالعاطفة ، وكلما كانت العاطفة قوية احتاجت الى خيال قوى يعين عليهما وضعف احدهما يؤثر أثرا كبيرا فى ضعف الآخر ، وقوة العاطفة تبعث على المبالغة فى الخيال فيذهب الاديب بخياله كل مذهب الى حيث يستغلق فهمه ويكون فى عداد الادب الرمزى ٠

ولو تعرضنا للخيال فى شعرنا العربى قبل استحكام النهضة الحديثة وقسناه بخيال الامم السابقة مثل الاغريق لوجدنا خيالنا العربى ضعيفا نظرا لكون العربى محصورا داخل صحرائه وان كان يسرح فى خيالات فانما هى محدودة مجسمة قريبة كالآلهة والوحوش، او شياطين الشعر وهى ابعد ما يتصوره العربى فى خياله وما الى ذلك ، اما الاغريق فهناك الأساطير والآلهة المعنوية المتعددة التى ينسبون لها الخوارق والمعجزات ٠

وبعد أن تقدم العربى وأحس بالطبيعة وبدأ فى وصفها ، لم يرق بخياله الى ما وصل اليه أدباء الغرب فى وقتنا الحاضر حسب ما نقرأ ونسمع ، وانما كان هم الشاعر العربى أن يدبج الصور البيانية من استعارة وتشبيه ومجازات ، ولا يعنى الشاعر بالمعنى الروحى للطبيعة ، فكل عنايته منصبة على الشكل لا الجوهر ، وان كان هناك من اعتنى بالطبيعة الروحية كابن الرومى فهذا نادر وهو موضع انتقاد من الادباء ، ولا أدل على ذلك من اهمال صاحب الاغانى لترجمة ابن الرومى وهو أوسع ما كتب فى الادب ، ولم يكن ابن الرومى من ينسى ، ولاريب أنه تعمد اهماله ٠

---

(١) النقد الادبى لاحمد امين ٠

ثانيا / خيال حافظ وأثره فى شعره وشاعريته /

الادب فن من الفنون الجميلة ، وكل فن لابد له من شروط وقواعد تكون ميزة له تميزه عن غيره من الفنون الأخرى.

والشعر الفنى — ان جاز هذا التعبير لاخراج المنظومات كألفية ابن مالك — لابد له من ثلاث صفات ، العاطفة والصياغة الجميلة والخيال ، هذا اذا تجاوزنا عن الوزن والقافية حسب ما يراه الغرب وتلامذتهم.

والذى نريد ان نبحثه هنا بالنسبة لحافظ ابراهيم هو (الخيال) فالخيال كما سلف عنصر مهم فى تقوية الادب والرفع من شأنه .

واذا رجعنا الى الكتب التى بين ايدينا من حافظ ابراهيم فكلها تنبئنا بأن حافظا ليس له حظ موفور من الخيال ، وسأذكر قول الدكتور احمد امين فى المقدمة وان كان فيه شئ من الطول لانه اصل لما كتب عنه فى هذا الموضوع ، فيقول (١) "اما خياله ، فكان مع الاسف — خيالا قريبا — قلل حظه من الابتكار ، وقلل حظه من التصوير ، قصر خياله عن ان يغوص فى باطن الشئ فيصل الى مكان الحياة منه ، ثم يخرجه الى الناس كما يشعر به ، وقصر عن ان يحلق فى السماء فيصور منظرا عاما يجذب النفوس اليه .

ولقد حاول ان يخلق بخياله قصة ، ولكنها خرجت قصة عرجاء ، تتخلع على الارض ولا تسبح فى السماء ، قريبة المنال ضحكة التصوير — ان شئت فاقرأ قصته فى مدح البارودى التى مطلعها (تعمدت قتلى فى الهوى وتعمدا) اذ يصف ذهابه الى حبيبته خفية ، فيقلد عمر بن ابى ربيعة فى رائيته المشهورة ، ثم لا يحسن التقليد ، ولا يأتى خياله بجديد ، أو فاقرأ قصته الشعرية التى وضعها فى ضرب الاسطول الطليانى لمدينة بيروت ، والتى مطلعها /

لـيـلاى ما أنا حـــى　　　　يرجـــى ولا أنا ميـــت

تر خيالا شاذجا وتصويرا مهلهلا".

ويقول الدكتور عبد الحميد سند الجندى (٢) " لم يكن حافظ ذا خيال خصيب قادر على الخلق والابتكار ، وقلما تجد له صورة تروعك وتستوقفك . وقد اراد ان يستعين بأحد المخترعات الحديثة فى خلق صورة بيانية فجاءت باهتة غير حية ، اقرأ له قوله فى الامام /

كأن فؤادى ابرة قد تمغطست　　　　بحبك أنى حرفت عنك تعطف

تجد صورة هزيلة يبدو فيها الافتعال والتعمل . وأراد ان يتخيل قصة غزلية فى قصيدته الدالية

(١) مقدمة ديوان حافظ ص ٤٠ ، ٤١
(٢) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ١٢١ ، ١٢٢

التى يمدح بها البارودى (١) على نحو ما صنع عمر بن ابى ربيعة فى رائيته المشهورة ، فجاءت القصة مسوخة مهلهلة كما اشرنا * ويشير بعد ذلك الى قصة الاسطول الطليانى · ومن ضعف صوره الناتج عن اجداب خياله ما روى عنه يعرض بحزب تركيا الفتاة /

تقاذفهم ايدى الليالى كأنهم بها مثل للناس فى القوم يضرب

وهو يقصد بذلك ان هؤلاء القوم مشردون يذهبون ويجيئون ويترددون كأنهم المثل الذى تتقاذفه الألسن ، فالصورة وان كانت جديدة ، فانه لاجمال فيها ، ويحس الانسان انه لم يوفق فى تخيل صورة للقوم حالة تشردهم فى انحاء العالم·

ومما تأثر فيه حافظ بضعف الخيال وظهر جليا ، ان ميزان الذوق السليم يختل عنده فيخرج لنا صورا لا تتناسب والذوق السليم لما فيها من الفساد والسقم ، ومن ذلك قوله عن مدينة (مكدن) الصينية التى حدثت فيها الموقعة الفاصلة فى الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٥ م وقد تخضبت أرضها بدماء الضحايا (٢)

وأصبحت مكدن ياقوتة يغار منها الدر والجوهر
ياقوتة قد قومت بينهم بأنفس كالقطر لا تحصر

فاليواقيت درر تستعمل للزينة ويشبه بها خدود الحسان ، والتغزل بهن الذى لا يمكن ان يشبه به بلدة قد اكتست بالدماء·

ومما يتضح فيه فساد الذوق قوله فى قصيدته التى رثى بها البارودى /

وأصبح الشعر والأسماع تنبذه كأنه دسم فى جوف معمود

ولا شك ان تخيله لهذا التشبيه للشعر بالدسم فى بطن الجيفة أمر تشمأز منه النفس ويمجه الذوق ، ولا ريب انه حاول ان يبتكر صورة جديدة لأن الشعر بعد البارودى اصبح لاتقبله النفس

واذا تصفحنا شعر حافظ نجده قليل العناية بتسريح نظره فى اعماق الطبيعة أو حتى سطحها ، والطبيعة هى الملهم الاول لأخيلة الشعراء الذى كانوا منذ القديم يفزعون اليها فى تنمية مواهبهم وتغذية أخيلتهم ، فقد حرم حافظ ابراهيم من ذلك كله ، لأن نفسه الحزينة البائسة سيطرت عليه وشغلته عن الانصراف الى الطبيعة وتذوقها والاستمتاع باكتشاف اللذة من اكتشاف أسرارها ·

ولكنه قد اختلس من نفسه بعض الغفلات ، فاتجه الى الطبيعة بأعماق نفسه فوصف بعض ما شاهده عليها ، وذلك حين كانت الظواهر أكبر من احزانه ، فأحس بها ووفق فى التحليق بخياله لابراز ما يراه ، يصور اخراجها من مخزون خياله من الصور· ومثل ذلك ما قال عن حريق

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٧
(٢) الديوان ص ١٢ جـ ٢

ميت غمر التى قالها سنة ١٩٠٢ م حين شب حريق استمر ثمانية أيام ذهب ضحيته أعداد كبيرة من البشر . ومطلع القصيدة /

سائلوا الليل عنهم والنهارا　　كيف باتت نساؤهم والعذارى

ويصف الحادث بما يقطع القلب حزنا بفعل توفيقه فى الخيال اضافة الى قوة عاطفته /

كيف أمسى رضيعهم فقد الأ م وكيف اصطلى مع القوم نارا

كيف طاح العجوز تحت جدار　　يتداعى واسقف تتجارى

الى آخر مايقول .

وهذه القصيدة تذكر بقصيدة ابن الرومى التى يصف بها البصرة عندما هجم عليها الزنج وأحرقوها وسبوا المدينة وخربوها بالحرق والهدم .

فمن هذه القصيدة تستنتج انه لو اتجه الى الوصف وكان عنده من القوة ما يتناسب به مافى قرارة نفسه من البؤس والأحزان لاستطاع أن يخصب خياله وينتج العجب العجاب فى هذا المضمار .

ولقد سافر سفرة يتيمة الى اوربا ، اطلع فيها على مالم يره طيلة حياته ، فانفتحت شاعريته على دنيا ادهشته فتنفس بحق ريح الشمال لأول مرة رغم كونه يدعى التجديد ، والتأثر باوربا فقال قصيدته التى مطلعها (١)

عاصف يرتمى وبحر يغير　　أنا بالله منهما مستجير

فقد وفق فى هذه القصيدة ، سواء فى اسلوبها او خيالها وصوره ، لأنه رأى وشاهد مالم يعهده فى مخيلته .

وهذه القصيدة دليل على انه لو استطاع الانفتاح على الادب الغربى لاستطاع أن يأتى بما يعجب ويطرب ، فلا ريب ان الاسفار تزيد من ثقافة الشخص وتعطيه تجارب ومادة شعرية راقية واكبر دليل هو شوقى رحمه الله ، واتصور ان حافظا لو اتيحت له ظروف ونفس شوقى الراضية الهادئة لفاق شعراء عصره ، فهو قد وصل الى ما وصل اليه من المنزلة بين الشعراء المعاصرين رغم فقده لأهم عنصر فى الشعر وهو الخيال .

ومن هذا نستنتج الاسباب التى يرجع اليها نضوب خيال حافظ ابراهيم ولعلها تتركز فى الأمور الآتية /

١ ـ ثقافة حافظ لم تكن بالواسعة كما سلف ، فضلا عن كونها عربية خالصة سطحية فلم يمد يده الى ريح الشمال كما يدعى ، ولم يفض على شعره من ذلك الا النزر القليل ، وهو جيد كقصيدته فى سفره

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٢٢٧

الى فرنسا وايطاليا التى أشرت اليها ٠

٢ــ قلة اسفاره الى البلاد المختلفة ، فلم يعهد عنه انه ترك مصر الا قليلا، لأن الاسفار والرحلات الى انحاء المعمورة تفيد الخيال اخصابا والفكر ثقافة ، وتصقل النفس وتهذب الاخلاق ٠ ولعل شوقيا أكبر برهان على ذلك٠

٣ــ حياة حافظ البائسة التى سيطر البؤس عليها منذ الطفولة ، ولم يستطع أن يتخلى عن هذه الظاهرة ، فأغفل لأجلها جانب الطبيعة وهى أكبر مورد للخيال ، وبهذا لم يقدر على العمل خارج نفسيته ، فأجاد فى الشعر الذى يتصل بأعماق نفسه وفشل فيما سواه ، فاذا حاول النهوض بأجنحة الخيال وجدها مكسرة ، كما يقول ذلك الاستاذ احمد محفوظ(١) " كان حافظ قريب الغور ، لا يضرب فى سموات الخيال بسهم بعيد الرمية ، ولا يحلق الا بأجنحة متكسرة" ٠

وبذلك لا نجد حافظا يقبل بوجه الجد الى المسائل والموضوعات التى يتعرض اليها بشعره فيخرجها من نفسه السطحية ، لأن أغواره مملوءة بأشياء أقوى تأثيرا من الشعر الذى لا يتفق مع هذا المخزون ، فهو أجاد فيما يمس نفسيته ، وقصر فيما لم يتصل بها ٠ فيجيد حين يحس بأعماقه ، ويضعف حين يتصنع قول الشعر ، فيعوض عن ذلك بالبحث عن الاسلوب القوى الرصين والعبارات الرنانة مستعينا بصوته واجادته القاء الشعر الذى دائما ما يغطى به عيوبه وتقصيره الذى يكتشفه هو بنفسه ٠

....

(١) حياة حافظ ابراهيم ص ١٨٥

آثاره الأدبيــــة /

بعد أن تم لنا بعون الله الحديث عن ثقافة حافظ وخياله ، أرى أن أذكر ما أورثه لنا شاعر النيل والوطنية من آثار ساهم بها فى بناء الجسم الادبى العربى ، وقد ذكر الدكتور عبد الحميد سند الجندى(١) ما خلفه حافظ من مؤلفات قام بتأليفها او نقلها من الفرنسية الى العربية خدمة للغــة والناشئة العربية وهى /

١ــ ديوان شعره ، وهو جزءان ، ويبدو أنه لايضم كل شعره اذ له قصائد لاتوجد فى الديوان منها ما ذكره الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى (٢) حيث يقول الدكتور " وقال حافظ من قصيدة عنوانهــا (وداع الشباب) ولم تنشر فى ديوانه " ومنها يخاطب منزله /

كم مر بى فيك عيش لســت أذكره ومر بى فيك عيش لســت أنساه

ودعت فيك بقايا ما علقــت بــه من الشباب وما ودعــت ذكراه

أهفو اليه على ما أقرحت كبدى من التباريح أولاه وأخــراه

وأحسن طبعة للديوان التى قدم لها وأشرف عليها المرحوم الدكتور أحمد أمين، والفضــل فى جمع أصل الديوان للصحف والمجلات والا لكان فقد كله ، لأنه لاريب فى فقد كثير من شــعره الذى لم تنشره الصحف.

٢ــ البؤساء ، وهى رواية ألفها شاعر فرنسا الأكبر (فكتور هيجو) وقد ترجمها حافظ سنة ١٩٠٣ م ويقول الجندى عن الترجمة "ولعل أهم ما يستوقفنا فى كتاب البؤساء ، الأسلوب العويص الذى قــد يستغلق فهمه على العقول ، فهو اسلوب بدوى خالص ملئ بالألفاظ الغريبة ... ويقول بعد ذلك وهناك غميزة أخرى بقلماء اغتمزتها فى حافظ ، تلك أنه لم يكن دقيقا فى ترجمته للكتاب".

٣ــ (ليالى سطيح) وقد ألفه فيما بين سنتى ١٩٠٧ / ١٩٠٨م وهو عبارة عن نقد للمجتمــع بث فيه حافظ خواطره وآراءه فى الادب والسياسة والمجتمع المصرى ، ووصف فيه حالة مصر وهى ترزح ، تحت نير المستعمرين ، وندد بأعمال الانجليز ، ولكن فى شئ من الحذر والترقب ، وقد اختى فـــى اسلوبه فى هذا الكتاب بالزخارف وتكلف الغريب على طريقة المقامات.

٤ــ كتيب فى التربية الأولية ، وقد ترجمه حافظ عن الفرنسية بتكليف من وزارة المعارف وقامت بطبعه مطبعة المعــارف سنة ١٩١٢م.

٥ــ الموجز فى علم الاقتصاد ، وقد ترجمه بالاشتراك مع خليل مطران بتكليف من وزير المعــارف أحمد حشمت ، ولكن حافظا لم يبذل جهدا كبيرا فى عملية الترجمة وهو الذى قام بالتقديم للكتــاب وقد طبعته مطبعة المعــارف عام ١٩١٣م.

والملاحظ أن هذه الكتب كلها ما عدا ديوانه لاتتطلب ثقافة علمية أو بحوثا علميــة

---

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ٢١٨ وما بعدها.

(٢) دراسات فى الادب العربى الحديث ومدارسه ص ٧٧ / ٧٨ .

تتطلب جهـدا كبيرا ، واكثرها حاجة الى الجهد هو الموجز فى علم الاقتصـاد ، وكان يتهرب مـن العمل فيه باسـتمرار ، والذى ترجمه بالفعل هو الشاعر خليل مطران ، ولم يكن له جهد بارز الافى التقديم ونيل الجـائزة.

خاتمة البحث /

الى هنا نقف عند نهاية البحث والتنقيب فيما يتعلق بحافظ ابراهيم وشعره وثقافته وخياله بالقدر الذى سمح به المقام ، وقد رجعت فى بحثى الى مراجع مختلفة ، وجدتها كلها تغترف من معين واحد ، وقلما يوجد اختلاف بين كاتبين فى فكرة او نقطة فى حياة حافظ اوشعره ، ومعظم من يكتب عن حياته يرجع الى كتاب (حياة حافظ) لاحمد محفوظ او مقدمة الديوان لاحمد امين ونحوها . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى فان حافظا مكشوف للناس من جميع جوانبه فحياته كلها قضاها بين الناس لايخفى منها شئ ، فهو شاعر الشعب ولا بد ان يعرفه الشعب ولم يكن ذاك الرجل العميق الذى لايسبر غوره . وشئ ثالث يجعل الناس لايختلفون فى نواحى حياة حافظ هوانه من المعاصرين ، ولم يكن حتى الآن مجال لاختلاف الآراء وتضاربها ، فلو اتيح لنا المجال وتيسرت الظروف لوجدنا من زملاء حافظ واصدقائه وتلاميذه من يخبروننا خبر العيان ، ولعل فضيلة الدكتور من اولئك.

ومن ناحية ثقافته وخياله ، لم يقع فى يدى كتاب يخالف فى كونه محدود الثقافة والخيال ، وان ثقافته ـ فضلا عن كونها عربية خالصة محدودة ضيقة سطحية لاتصل الى اغوار العلوم والمعرفة وكذلك غير منظمة ، ربما ادرك جلها بالمشافهة اثناء تردده على مجالس اساتذته ، ومجالس الصحفيين والزعماء الذين تعج مجالسهم بشتى المناقشات للمسائل التى تغذى الفكر بالزاد الروحى وتنمى القدرة على التصرف فى شؤون الحياة.

ولقد استعرضت ديوانه لأخرج بجديد فى مجال ثقافته وخياله ، اشرت الى شئ من ذلك اثناء الحديث فى الموضوع.

وأحب أن أشير وأنا أختم الحديث عن الموضوع ، أن لانتصور ونحن نذكر حافظا بضعف الثقافة والخيال أنه امعة عامى لايمت الى الثقافة بصلة ولا ينهض جناح خياله ، ولكن المقصود أنه اعتمد فى شعره على موهبته وطبيعته اكثر من وسائل الصناعة الشعرية ، فهو شاعر مطبوع لا شاعر مصنوع ، والا فان قصائده تشير الى اطلاعه على التاريخ العربى والاسلامى ، فملحمته (مصر تتحدث عن نفسها) والتى انشدها فى الحفل الذى أقيم بفندق الكونتننتال لتكريم المرحوم (عدلى يكن باشا) بعد عودته من اوربا قاطعا المفاوضة مع الانجليز ومستقيلا من الوزارة ، وقد نشرت فى ١٥ / مايو سنة ١٩٢١ م (١) ومطلعها /

وقف الخلق ينظرون جميعا	كيف أبنى قواعد المجد وحدى
وبناة الأهرام فى سالف الدهـ	ـر كفونى الكلام عند التحدى

(١) الديوان جـ ٢ ص ٨٩

ويستعرض تاريخ مصر من ايام الفراعنة و (بنتؤر) اقدم شاعر عرفه التاريخ ، كما أن ملحمته العمرية التى نظمها فى تسجيل ادوار حياة (عمر بن الخطاب) رض الله عنه ، وقد انشدها فى الحفل الذى أقيم من أجلها فى (٨ فبراير عام ١٩١٨ م) فى مدرج وزارة المعارف ، وهى سرد لحياة عمر وأعماله ويبلغ عدد ابياتها ((١٨٦)) بيتا فى عشرين صفحة من الديوان (١) وقد فصلها الى فصول / مقتل عمر / اسلام عمر / عمر وبيعة أبى بكر .... / الخ . ومطلع العمرية /

حسب القوافى وحسبى حين ألقيها ... انى الى ساحة الفاروق أهديها

لاهم ، هب لى بيانا أستعين به ... على قضاء حقوق نام قاضيها

ويستمر فى سرد المواقف التى وقفها عمر ويعدد مناقبه فى اسلوب رصين ومعلومات دقيقة قل من يفطن اليها او يدركها .

وقصيدته (تحية الشام) التى القاها فى الجامعة الامريكية ببيروت فى شهر يونيه سنة ١٩٢٩ م ذكر فيها معلومات ومقارنات وثيقة الصلة تنبىء عن خبرة بالأمور ، وأشار الى الغساسنة واليونان والى أدباء الشام الذين تغربوا لأرض (كولمب) وفى البيت الاول منها اشارة الى تفوق الامريكان فى مجال الطيران وهو دليل على ثقافته ،

فتلك دنياهم فى الجو قد نزعت ... أعنة الريح من دنيا سليمان

أبت أمية أن تفنى محامدها ... على المدى وأبى أبناء غسان

فمن غطارفة فى (جلق) نجب ... ومن غطارفة فى أرض حوران

ويقول بعد ذلك عن المغتربين /

تيمموا أرض كولمب فما شعرت ... منهم بوطء غريب الدار حيران

ويشير فى قصيدته التى حيا بها جمعية المرأة الجديدة (٢) يشير الى صفية أم المؤمنين فى جيش الرسول مع العشرين امرأة فى غزوة خيبر وكن سببا من أسباب نصرة الجيش

صفية قادتكن للمجد والعلا ... كما كان سعد قائد السروات

ومعظم قصائده تشتمل على مثل هذا ، والرجوع الى البحث فى تحصيل مثل هذه المعلومات لابد أن يكون بدافع من خيال يتصوربه الأحداث ويستعيدها فى ذاكرته .

نعم ان المعانى قريبة ومؤرخة فى كتب التاريخ فهى ثقافة لاشك ، ولكن حافظا شاعر ، والشاعر لايطالب بالغوص فى المعانى والتنقيب عنها شأنه شأن البحترى الذى لم يعبه أحد بما عيب به حافظ ، بل على العكس قد مدح واعتبر الشاعر ، فعندما سئل أبو العلاء المعرى عنه وعن المتنبى وابى تمام قال (ابو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى) وما ذلك الا انه بدوى لادخل له

(١) الديوان جـ ١ ص ٧٧ ـ ٩٧
(٢) الديوان جـ ١ ص ١٣٢

بالثقافة والعلوم ، اجاد اللغة والالفاظ كما اجادها حافظ . نعم ان البحترى اخصب خيالا من حافظ ، ولكنه لم يقصر من ناحية الصياغة اللفظية والثروة اللغوية ، ومن المعروف ان وزير المعارف احمد حشمت اسند اليه مع خليل مطران ترجمة كتاب الموجز فى علم الاقتصاد ، وقد أصاب فى ذلك لأن خليل مطران متقن للفرنسية وحافظ ابراهيم بحر فى اللغة العربية كما يقول ذلك الدكتور عبد الحميد سند الجندى (١) ولو لم يكن حافظ على قدر من الثقافة والخيال لايستهان به لما استطاع أن يصل الى ما وصل اليه من المنزلة الشعرية التى لم يقر لأحد أنه أشعر منه الا لشوقى مع الاشارة الى أن تفوق شوقى لظروفه من القصر الملكى وابتعاثه من قبل الحكومة الى فرنسا ودول أوربا وهذا مالم يتح شئ منه لحافظ ، وقد تفوق مع العلم أن عصره كان فيه من فحول الشعراء عدد كبير . قال حافظ /

قل للألى جعلوا للشعر جائزة	فيم الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟
انى فتحت لها صدرا تليق بـه	ان لم تحلوه فالرحمن حـلاه
لم أخش من أحد فى الشعر يسبقنى	الا فتى ماله فى السبق الا ه
ذاك الذى حكمت فينا يراعتـه	وأكرم الله والعباس مثـواه

ويبايعه بامارة الشعر فيقول حافظ /

أمير القوافى قد اتيت مبايعـا	وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

فهل يطمع الا انه له قدرة على ما يطمع فيه ، ولماذا لم نسمع ان أحدا غيره يطمع فى الامارة ، ولكن الاعتراف بالحق فضيلة ، فقد اعترف بشوقى وهو بحق لم يكن كشوقى فى ثقافته وخياله المجنح الذى به رفع من مستوى الشعر العربى الى مصاف الآداب العالمية .

وأكرر أن الضعف فى خيال حافظ وثقافته ليست بالقليلة التى نفهمها من قولنا (قليلة) ولكنها بالنسبة لمن هو فى مستوى حافظ ابراهيم من الشهرة والمنزلة الأدبية المرموقة ، والا فان له من الثقافة والخيال الشئ الذى لايستهان به ، ورحم الله حافظا رحمة واسعة لقاء ماقدم من خدمة للشعر العربى الحديث خاصة والأدب عامة . ،،،،،،

---

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل ص ٢٢٠

مراجـــع البحـــث

١ــ ديوان حافظ ابراهيم	تقديم الدكتور / أحمد أمين
٢ــ حافظ ابراهيم شاعر النيل	تاليف الدكتور / عبد الحميد سند الجندى
٣ــ الأدب العربى المعاصر فى مصر	الدكتور / شوقى ضـيف
٤ــ النقــد الادبى	الدكتور / أحمد أمين
٥ــ فى النقـد الادبى	الدكتور / شوقى ضـيف
٦ــ حياة حافظ ابراهـيم	الدكتور / أحمد محفوظ
٧ــ دراسات فى الادب العربى الحديث ومدارسه	الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى
٨ــ الموازنة بين الشعراء	زكى مبارك
٩ــ دراسات فى الادب المعاصر	الدكتور / محمد عبد المنعم خفاجى
١٠ــ شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى	عباس محمود العقاد
١١ــ حافظ وشوقى	الدكتور / طه حسين
١٢ــ العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث	الدكتور / سعد الدين محمد الجيزاوى
١٣ــ حافظ ابراهيم	أحمد الطاهر
١٤ــ العامل الدينى فى الشعر المصرى الحديث	الدكتور / سعد الدين الجيزاوى مكرر

فهرس البحث